الفصل السابع عشر

إثارة الشُبهات حول الإسلام

إضعاف الإسلام والمسلمين هو المصير المضمون لأوروبا وهو بديل كل الآمال المرصودة فى المواجهة ؛ لأن رِدَّة المسلم عن دينه كلية ثبت لهم استحالتها ، ولذلك طرقوا كل باب ينفذون منه لإضعاف الإسلام والمسلمين ، فقد رأينا من قبل لما هال أوروبا تجمع المسلمين تحت لواء الخلافة وبسطت تركيا نفوذها شرقاً وغرباً ، وصارت هى القوة الوحيدة فى العالَم جمعت أمرها لتقويض هذا الصَرْح العملاق ، وكان من أبرز عوامل انتصار أوروبا هو تفتيت الوحدة الإسلامية عن طريق القوميات ، فقد استعملت هذا الفتيل فى عزل الشعوب الإسلامية عن دولة الخلافة .

فالقومية الفارسية عزلت مسلمى إيران عن الوحدة الإسلامية . والقومية العربية عزلت مسلمى العرب عن الوحدة ، بل جنَّدتهم أوروبا لضرب الوحدة على نحو ما مرَّ بنا من حديث عن الثورة العربية . والقومية التركية نفسها عزلت مسلمى الترك عن الشعوب الإسلامية الأخرى .

وحين سرى سرطان القوميات فى جسم الأمة الإسلامية أفسحت أوروبا المجال لتوجيه الضربة القاضية فى صدر الوحدة الإسلامية وفى صدور المسلمين جميعاً ، وكان الهدف من بعث القومية التركية هو إقصاء الإسلام عنها حتى لا تفكر تركيا مرة أخرى فى تكوين كتلة إسلامية تحت مظلة الإسلام .

وسلاح القوميات سلاح مدمر ، وقد اكتوت أوروبا بناره خلال القرن

التاسع عشر ؛ فقد كانت أوروبا تبحث لها عن رباط جامع يوحِّد بين شعوبها ، فلم تعثر عليه لا فى دين ولا فى لغة ، ثم لجأت إلى ظاهرة القوميات ، ولكنها بدلاً من أن توحِّد القوميات بين شعوب أوروبا كانت سبباً فى حدوث الشقاق والحروب بين دولها . ومن أظهر الأمثلة على ذلك حروب نابليون الشهيرة بطل القومية الفرنسية ، ومحاولاته لفرض السيطرة الفرنسية على الشرق والغرب .

إن أوروبا حين صدَّرت آفة القوميات إلى العالم الإسلامى كانت تتنبأ بيقين بنتائجها الخطيرة على مصير البلاد ، فهو سلاح مجرَّب ، ونجاحه أكيد .

ثم فجَّرت سلاحاً آخر فى جسم القوميات هو سلاح الوطنيات لأن القوميات قد تكون ذات تأثير واسع مثل القومية العربية التى لو تُرِكت بدون تفتيت لانتظمت الدول العربية كلها . وهذا فى حد ذاته شىء مخيف . ولكن لم تكن أوروبا لتقف أمامه مكتوفة الأيدى ، فشجعت ظاهرة الوطنيات وتحقق لها من خلالها تفتيت العالَم العربى إلى كيانات صغيرة متفككة لا تُسمن و لا تُغنى من جوع ، فتُتت الوطنيات بسلاح الطائفية الدقيق ، ولم يبق أمامها بعد هذا « التوزع » إلا أن تحارب الإسلام ، وتقلل من شأنه فى نظر بنيه ؛ لأن بقاء الإسلام نفسه - سليماً - قد يعيد قوة المسلمين إلى ما كانوا عليه فكان الإسلام - إذن - هو الهدف ، وتشويه حقائقه هو المعركة المستديمة .

وسبق أن أشرنا إلى الأدوات التى استخدمت فى مواجهة الإسلام وهى فى إيجاز :

١ - التبشير والمبشِّرون .

٢ - الاستشراق والمستشرقون .

٣ - ممثلو الاستعمار من رجال أوروبا أنفسهم ممن شغلوا مناصب استعمارية فى بلاد المسلمين مثل « كرومر » ، و « دانلوب » وغيرهما .

٤ - عملاء الاستعمار من سياسيين وكُتّاب ومفكرين وأدباء وفنانين وإعلاميين .. إلخ .. إلخ .

والآن نقوم بعملية رصد سريع للغط الذى أثاروه حول حقائق الإسلام بغية إبطال مفعوله ، وتفريغه من محتواه :

● القرآن الكريم :

كان اهتمام أوروبا بالإساءة إلى القرآن فائق الحد ؛ لأنها تدرك أن قوة المسلمين مستمَدة بالدرجة الأولى من القرآن ، وقد أفصح بعض ساستهم ومفكريهم أن المسلمين لا يمكن أن يتحقق الأمل المنشود لأوروبا منهم ما دام القرآن هو دستورهم ، وما دام الالتفاف حول « الكعبة » هو وجهتهم ، ثم ما دام الأزهر مصدر تعليمهم وموئل علمائهم وطلاّبهم . لهذا راحوا يوجهون الطعون إلى القرآن بقصد التهوين من شأنه عند المسلمين ، ومما وجهوه إليه من طعون ما يأتى :

* ادّعوا أن القرآن من تأليف « محمد » ﷺ ، وأنه ليس وحياً من عند اللّه ؟! وهذا ما شاع عندهم بـ « بَشرية القرآن » ؟!

* ادّعوا أن القرآن مقتبَس من التوراة والإنجيل . وهذا يتسق إلى أبعد مدى مع دعواهم أن مصدر القرآن بَشرى أرضى ، لا سماوى إلهى ؟!

* ادّعوا أن القرآن ليس معجزاً ، وأن محاكاته والإتيان بمثله ممكن ، غاية ما فى الأمر أن القرآن مصوغ بأفصح الأساليب العربية ؟!

* ادّعوا أن القرآن - على فرض أنه وحى من عند اللّه - فهو ذو طابع محلى قومى لا يتعدى البيئات العربية ولا الجنس العربى إلى غيرها من البيئات أو غيرهم - يعنى العرب - من الأمم والشعوب ، والأجناس البَشرية ؟!

* وادّعوا أن ما كان فى القرآن صحيحاً فهو ليس بجديد ؟! وأن ما كان فيه جديداً فهو ليس بصحيح ؟!

* وادَّعوا أن الجزاء فى القرآن مادى فحسب : فالطائع له الجنة بما فيها من ملذات الطعام والشراب واللباس والحور العين ، وأن العاصى له النار بما فيها من عذاب مؤلم يشوى الوجوه وينضج الجلود ، وينزع الشوى (الأطراف) وطعام كرءوس الشياطين ، وشراب من حميم ؟!

*

● السيرة والحديث :

ولغطوا فى سيرة صاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم ، وفى أحاديثه الشريفة ، وكان مما روَّجوا له وزعموه :

* إن « محمد » ﷺ ليس رسولاً من عند اللّه ، وإنما هو مصلح عبقرى ؟!

* إن أحاديثه لم تُكْتَب إلا بعد ثلاث سنوات من رحيله فهى مكذوبة عليه ؟!

* إنه كان شهوانياً ميالاً للنساء وقد استباح لنفسه من النساء - يقصدون تعدد زوجاته - ما لم يبحه لأتباعه .

* إن حروبه ومغازيه كانت من أجل المال والمُلْك ولم تكن من أجل الدعوة إلى دين سماوى ، ولا من أجل هداية الناس إلى دين هو خاتم الرسالات السماوية ؟!

* إنه - صلى اللّه عليه وسلم - إن صح أنه رسول من عند اللّه فهو رسول إلى العرب وحدهم لا إلى غيرهم من الأمم والشعوب والأجناس ؟!

* إنه - صلى اللّه عليه وسلم - ربَّى أصحابه على البطش والعنف والغزو والهمجية فعاثوا فى الأرض فساداً ، ودمَّروا الممالك من أجل الحصول على المال وقهر الشعوب ؟!

ولكى يكون القارىء على ثقة بما نقول نضع بين يديه هذه النماذج من دجلهم وإفتراءتهم .

فهذا المونيسينور « كولى » يقول فى كتابه « البحث عن الدين الحق » : « الإسلام فى القرن السابع للميلاد : برز فى الشرق عدواً جديداً أسس على القوة ،

وقام على أشد أنواع التعصب (؟!) لقد وضع محمد السيف فى أيدى الذين اتبعوه ، وتساهل فى أقدس قوانين الأخلاق ثم سمح لأصحابه بالفجور والسلب (؟!) ووعد الذين يُهلكون فى القتال - الشهداء - بالاستمتاع الدائم بالملذات (؟!) يعنى الجنة - وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وإفريقيا ، وأسبانيا فريسة له - يعنى للإسلام - حتى إيطاليا هددها الخطر ؛ وتناول الاجتياح نصف فرنسا (؟!) لقد أصيبت المدنية ولكن هياج هؤلاء الأشياع - المسلمين - تناول فى الأكثر كلاب النصارى (؟!) ولكن انظر : ها هى النصرانية تضع بسيف « شارل مارتل » سداً فى وجه سير الإسلام المنتصر عند بوانيه عام ٧٥٢ م . ثم تعمل الحروب الصليبية على مدى قرنين تقريباً (١٠٩٩ - ١٢٥٤ م) فى سبيل الدين ، فتتدجج أوروبا بالسلاح وتنجى النصرانية ، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب . وانتصر الإنجيل على القرآن ؟! وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة » [١] .

ويقول « چوليمين » فى كتابه « تاريخ فرنسا » : « إن محمداً - ﷺ - مؤسس دين الإسلام قد أمر أتباعه أن يُخضعوا العالم ، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو . ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين - يعنى المسلمين - وبين النصارى ؟!

إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة ، وقالوا للناس : أسلموا أو تموتوا ؟! بينما أتباع المسيح - ربحوا النفوس ببرهم وإحسانهم » ؟!

هذا هو صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم كما يُصوِّره أعداء الحق فى أوروبا ، وتلك هى سيرته كما يروِّجون عنها . والمسلمون فى نظرهم همج ووثنيون . وليس لنا من تعليق على هذه الافتراءات الموغلة فى البطلان . وإن كان لنا من تعليق قصير فهو ما قيل فى المثل العربى القديم : « رمتنى بدائها وانسلت » ؟!

*

(١) يقول الدكتور محمد البهى - رحمه الله - إن هذا الكتاب الذى ألفه « كولى » يدرس فى المدارس المسيحية فى الشرق والغرب إلى اليوم ؟!

● الغزوات والفتوحات :

أما الغزوات والفتوحات ووقائع التاريخ الإسلامى فى عهد الخلفاء فقد وصفوها بأنها غارات همجية من أجل الحصول على المال وحب السيطرة ، وقد ردد هذه الأباطيل فى مصر « سلامة موسى » فى كثير من كتاباته ، وتابعه على نحو من الأنحاء « على عبد الرازق » فى « كتابه الإسلام وأصول الحكم » وتناول تجريح سيرة رجال الإسلام « جورجى زيدان » فى بعض مؤلفاته ، وهو الأمر الذى حمل المرحوم عباس محمود العقاد على كتابة « العبقريات » التى دافع فيها عن سيرة أعلام الصحابة ، كما دافع عن سيرة صاحب الدعوة .

*

● بعض تشريعات الإسلام :

تناول خصوم الإسلام من أوروبا بعض التشريعات الإسلامية واتخذوا منها منافذ للطعن فى الإسلام نفسه ، الذى يصفونه بأنه قد استهلك ولم يعد صالحاً للعمل فى حياة المدنية والرقى لأنه دين بدوى صحراوى ؟! ومما قالوه فى بعض التشريعات :

* إن الإسلام قد استهان بالمرأة وغمطها حقها ، فهو لا يعطيها إلا نصف نصيب الرجل فى الميراث ؟!

* وإنه حقر من شأنها حيث جعل للرجل الاستمتاع بأربع نساء فى زمن واحد . وحرّم على المرأة الاستمتاع بأكثر من رجل واحد ؟!

* وإنه جعل مصير المرأة فى يد الرجل يشردها - يطلقها - متى يشاء ؟!

* وإن الإسلام لا يثق فى المرأة فأمرها بالحجاب وجعل أفضل أماكنها هو البيت ، وحظر عليها الخروج أو السفر وحدها إلا فى صحبة محرم من محارمها ؟!

* إن الإسلام حرم المرأة من كثير من حقوقها فى الحريات العامة والخاصة فلم يبح لها الاضطلاع بالمهام والمناصب القيادية فى الدولة ، وحظر عليها الاختلاط بالرجال ، وجعل إذن الرجل - أباً أو زوجاً - شرطاً فى بعض تصرفاتها الشخصية ؟!

* وفى الزكاة قالوا إنها نظام يشجع على البطالة و « البلطجة » ويبعث على التكاسل وقتل المواهب والميل إلى الدعة والاستكانة ؟!

* وعن العقوبات على جرائم المال والعِرض والنفس والعقل قالوا : إنها وحشية لا تليق بالمجتمعات المتحضرة ووسيلة من وسائل التشويه كقطع يد السارق ، وجلد الزانى ، وأن الرحمة بالمجرم أولى من الانتقام منه ، وأدعى إلى إصلاح شأنه ؟!

* وعن التوجه نحو الكعبة فى الصلوات ، والطواف حولها قالوا إنه من ضروب الوثنية وعبادة الأصنام ؟!

* وعن الإيمان بالقضاء والقَدَر قالوا : إنه يخلق فى النفس التواكل ويُقعد عن العمل والجِد المثابرة ، فيضعف أو ينعدم الإنتاج زراعياً كان أو صناعياً أو تجارياً ؟!

* وعن النظام الاقتصادى فى الإسلام وتحريمه للربا والفوائد قالوا : أنه يكبل النشاط الاقتصادى بقيود ثقيلة ويؤدى إلى تعطيل المصالح العامة والخاصة ويجافى روح العصر ومبتكراته ، ويُعرِّض الثروة للضمور والانكماش فى الوقت الذى تؤدى فيه النظم الاقتصادية المعاصرة - يعنى الربوية - دوراً خطيراً فى الحياة ؟!

* وعن مناهج الفقة فى الإسلام قالوا إنها مأخوذة عن مناهج الفقه والقانون الرومانى ، وليست عملاً إسلامياً خالصاً .. ؟!

* وعن التفكير الفلسفى فى الإسلام قالوا : إن الإسلام ليس فيه تفكير فلسفى ، والفلسفة الإسلامية المعروفة الآن إنما هى الفلسفة الإغريقية مكتوبة بحروف عربية وكان أول مَن افترى هذه الفرية هو المستشرق « آرنست رينان » . وإن الفلاسفة العرب لم يزيدوا على جمع الفلسفة اليونانية ثم شرحها وتبويبها ، فهم مقلِّدون لا مبتكرون مبدعون ؟!

* حتى العلوم اللغوية والنقدية والبيانية ومناهج البحث فيها سلبوا عنها آصالتها العربية الإسلامية وعزوها إلى منابع التفكير الأوروبى الحديث . وأن النهضة العلمية العربية القديمة لم تكن لتكون لولا الترجمات التى تمت فى القرن الثالث الهجرى وما بعده من اللغات الهندية واليونانية والرومانية والسريانية وغيرها إلى اللغة العربية ؟!

* *

● الفكر الأوروبى الحديث :

وهكذا تتبعوا محاسن الإسلام فعزوا بعضها إلى مصادر غير عربية ولا إسلامية ، أما ما لم يجدوا له مصادر ينسبونه إليها من قِيَم الإسلام ومعالم حضارته فقد لغطوا فيها على النحو الذى مرَّ ، وجعلوا المحاسن مساوىء حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أنه الحق ؟!

والهدف من هذا كله هو تشويه الإسلام فى نظر المسلمين حتى يزهدوا فيه ويُعرضوا عنه ، وحينئذ لا يكون المسلمون على شئ من أسباب القوة والرقى . إن أوروبا تسعى جاهدة لتجريد المسلمين من أقوى سلاح هو الإسلام نفسه . وكيف تتصور حال المسلمين إذا ألقوا أسلحتهم أمام عدو قد تسلَّح ضدهم بكل ما أوتى . كيف تتصور حال المسلمين يا ترى إلا أن يكون هو الضياع والهوان . وهذا هو الواقع الآن وإن رغمت أنوف ، وانتفخت أوداج ؟!

وليس فى وسعنا الآن مناقشة تلك الادعاءات ، خشية الإطالة . ولكن بوسع القارىء أن يرجع إلى بعض المؤلفات التى فنّدت تلك المزاعم ، وبيّنت زيفها . ومن المؤلفات المفيدة فى هذا المجال ما يأتى :

* حقائق الإسلام وأباطيل خصومه - ما يقال عن الإسلام - أثر الإسلام فى الحضارة الأوروبية الحديثة - كتب العبقريات . وكلها للمرحوم عباس محمود العقاد .

* معركة المصحف فى العالم - الإسلام المفترى عليه - دفاع عن الإسلام - التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام . وكلها للأستاذ الشيخ محمد الغزالى أطال الله فى عمره .

ثم : السُنّة ومنزلتها من التشريع للمرحوم الدكتور محمد حسنى السباعى .

ثم : دفاع عن السُنّة للمرحوم الشيخ محمد محمد أبو شهبة .

ثم : مواجهة صريحة بين الإسلام وخصومه - والإسلام فى مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة - والإسلام فى مواجهة الاستشراق العالمى - وإفتراءات المستشرقين على الإسلام . عرض ونقض - والمرأة فى عصر الرسالة بين واقعية الإسلام وأوهام المرجفين . وكلها لكاتب هذه الدراسة .

* * *